المجلة الدولية للتنمية ـ المجلد الثانى العدد الاول (2012): 85-92
International Journal of Development, Vol.2, No.(1) (2012): 85-92
ISSN: 2314-5552 **e-ISSN: 2314-5560 (Online)**
www. ijd.byethost13.com **e-mail: ijd_fas@yahoo.com**

العمارة الدينية وتطورها في ليبيا أثناء العهد العثماني (1551 - 1711 م) دراسة تاريخية أثرية

علي أحمد الدوماني
كلية الآداب والعلوم ـ مسلاته جامعة المرقب ـ ليبيا

المقدمة

إذا كان الهدف من أعمال الزخرفة التي تكسو معظم جدران المباني الإسلامية هو الأحساس بفتيت الكتلة إلى وحدات زخرفية لا متناهية وجعل العناصر المعمارية المكونة لهذه المباني أقل صلابة.

فإن الطابع المميز لفن العمارة الإسلامي في ليبيا على العكس من ذلك ؛ ليؤكد صلابة الكتلة والاعتماد عليها كعنصر معماري تعبيري مجرد ، وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على صلابة السكان ويعكس روحهم النضالية من جهة ويؤكد بالتالي وعيهم الفطري بجوهر الفن المعماري والمتمث في الاحساس بقيمة الحيز الفضائي الذي يشغله المبنى والفضاء المنحصر داخل جدرانه[1]

حتى ان الإضافات التزيينية التي يلجأ إليها بعض البنائين أحياناً لمعالجة سطوح هذه المباني تأتي في الغالب على هيئة نحت بارز أقرب إلى الـ الجداري منها إلى أعمال الزخرفة باستثناء جامع أحمد باشا وجامع قرجي بطرابلس، حيث ازدانت بيوت الصلاة فيهما باعمال زخرفية جميلة في ح جاء الشكل الخارجي متفقاً مع الإطار العام للمعمار الوطني[2]

فالمساجد القديمة البسيطة ذات القبيبات المتعددة ومباني القبوات المستطيلة والمربعة على اختلاف أنماطها والمنتشرة على امتداد القرى الليبية و الأخرى من قلاع وفنادق ومنازل التي أبدعتها يد البناء الليبي الفنان، هي دليل قاطع على إحساس بقيمة الكتلة وقدرتها التعبيرية، ومن جهة أخرى تاريخ الإنشاء المعماري في ليبيا كان مرتبطاً وباستمرار لظروف اقتصادية وجغرافية ومعمارية صعبة وفي ظروف سياسية ومعيشية لم تعرف معنى الاستقرار، فمن مكافحة قسوة الطبيعة وغزو الأجانب إلى مقاومة إغراء مختلف المدراس المعمارية العابرة باستثناء المدرسة المغربية، بما ك يتسرب منها عن طريق تونس من خبرات ومهارات ظهرت آثارها في بعض أعمال العمارة الوطينة، بل إن أصالة الفن المعماري الليبي استطاعت أن تنفذ إلى أذواق الوافدين حتى إن سنان المهندس العثماني لم يستطع مقاومة عشقه وتأثره بجمال وبساطة المسجد الليبي عندما قام بتشييد مسجد "ا باشا" باستنبول.

وهكذا فأن المعمار الليبي عموماً والديني منه بصورة خاصة بدأ بداية بسيطة ثم شهد مراحل من التطور لعل أبرزها كان خلال الفترة موضوع الدراسة .

أولا: نشأة العمارة االدينية في ليبيا.

ـ الموقع الجغرافي وأهميته:

تحتل ليبيا الجزء الأوسط لساحل البحر الأبيض المتوسط الجنوبي أو ما يسمى بشمال أفريقيا وتمتد فوق (1.750.000) مليون كم2 أي أكثر من 18% من مساحة الوطن العربي في أفريقيا وتمتد بالتحديد من شواطئ البحر المتوسط شمالاً إلى حدود كل من النيجر وتشاد في الجنوب، أما من ناحية الشرق فيمتد خط الحدود مع الحدود الغربية لجمهورية مصر العربية والحدود الشمالية الغربية للسودان والحدود من الغرب تمتد مع تونس والجزائر، أما من حيث التحديد الفلكي فهي تنحصر بين 33 30 و 18.45 شمالاً ويحـدها غرباً خط طول 9 0، وشرقاً خـــــط طول 25 0 شرقاً[3]، وتعد ليبيا من الدول التي تمتلك جبهة بحرية طويلة وسواحلها من اطول السواحل على البحر الأبيض المتوسط، وهي دولة عربية أفريقية إذ تدخل ضمن نطاق دول حوض البحر المتوسط الذي يعد مركز الحضارات القديمة وهذا منحها الفرصة لكي تتصل بدول هذا الحوض منذ الأف السنين[4]

وبفضل هذا الموقع المهم والمتداخل الذي ربط ليبيا بالبلدان المجاورة لها أهلها لأن تكون حلقة الوصل المهمة المساعدة على نقل المؤثرات الحض بينهما، وهذا الموقع أثر وبشكل مباشر في تكوين وتشكيل سمات ومميزات العناصر الزخرفية والمعمارية في العمارة الإسلامية في ليبيا ، ومن المعروف أن ليبيا كانت ولا تزال حلقة وصل بين شرق العالم الإسلامي وغربه وبين الشمال والجنوب، وهذا بدوره ساعد على الأسلوب المعماري وخاصة على الشريط الساحلي والسهول الساحلية، وعلى امتداد طرق القوافل، حيث يكثر التركز السكاني وفي المناطق الريفية والواحات الداخلية وتطور الأسلوب المعماري البسيط في البناء والزخرفة وصار له تقليده الخاص[5]

والعلاقةالتجارية مع وسط أفريقيا عن طريق القوافل أثرت على تطور الفن المعماري الإسلامي ومظاهر زخرفته في ليبيا فالعنصر الأفريقي الذي هو واضح في العمارة الريفية في ليبيا، كان نتاجاً لهذه العلاقة التجارية ، ولقد كانت الباحثة "د(الوجونز) محقة في ربطها للعنصر الأفريقي المعمارين والذي هو واضح في المعمار الريفي البسيط مع العمارة الليبية المتطورة والتركيز على الشريط الساحلي، ومن المعتقد أن التأثير الأفريق

يظهر واضحاً في التحف المنقولة كالأبواب الخشبية ذات الزخارف البارزة المحفورة ، كما أن انتشار الإسلام في الأقطار الأفريقية المتاخمة للصحراء كان عاملاً آخر من عوامل الربط بين دول شمال القارة وجنوبها[9]
وابتداءً من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر ظهر في ليبيا نوع من الزخرفة، كما ظهر منبر العمارة الإسلامية في كل شمال أفريقيا
وبطبيعة الحال فأن الموقع الجغرافي في ليبيا جعل منها ساحة للتأثير والتأثر بما حولها من البلدان وبخاص شمال القارة الأفريقية وجنوبها.

ثانيا: تطور المعمار الديني في ليبيا:

تنوعت العناصر الفنية التي استخدمت في تجميل العمائر الإسلامية، وهذا التنوع الكبير هو الذي أعطى للفن الإسلامي خصائصه ومميزاته
وشهدت الأقطار الإسلامية طرق مختلفة في تننوع الزخارف، وكان هذا التنوع يختلف من قطر إلى آخر[7] والملاحظ أن العهد العثماني جزء لا
يتجزأ من العصور التاريخية الإسلامية ، وفترة الأربعة قرون الأخيرة مازالت آثارها المعمارية باقية في العديد من[8] المدن والمناطق الليبية
ونظراً لطبيعة موقع ليبيا فقد ظهر الترابط بين المعمار الليبي وجواره الإسلامي والجغرافي، وتبادل التأثيرات التاريخية والجغرافية، ولم تكن
حلقة اتصال، بل شكلت هويتها الخاصة ومميزاتها ، كما أن الزخاف المعمارية والفنية تقترب من الزخاف في بلاد شمال أفريقيا والشام، وكانت
الزخارف الأكثر شيوعاً في ليبيا مثل الأزهار والفواكه ونباتات محورة بحيث يصعب في الغالب التعرف عليها، والملاحظ أن الفنانين المسلمين قد
تركوا في هذا الميدان تحفاً رائعة لم يسبق لها مثيل، وقاموا بدرا سة الزخرفة الهندسية[9] وقاموا بنسخ الكتابات الخطية والبارزة وعناصر هندسية
واستخدام الحليات الزخرفية البارزة ، وظهور العديد من المواضيع الزخرفية الفنية مثل الوريدات وأزهار القرنفل وزهرة عباد الشمس، ومن أهم
خصائص العمارة الدينية والمدنية في ليبيا استخدام العنصر الزخرفي على واجهات وأركان المآذن وعلى مداخل وزوايا المباني والنجمة الخماسية
والهلال الزخرفي، الجصية الرخامية ، بلاطات القاشاني، ذات اللون الواحد أو[10] بتعدد الألوان
كانت معظم المساجد في ليبيا تتميز بقلة زخارفها حسب الأسلوب المحلي الذي يمثل المواضيع النباتية لأزهار وفواكه ونباتات محورة، ومواضع
هندسية وخطية، إلا أن تغيراً قد حدث في هذا الجانب مع خضوع مدينة طرابلس للحكم العثماني، وأخذ الاهتمام بزخرفة المساجد في الازدياد ، وقد
مر بعدة مراحل وهي : زخرفة أجزاء من المحراب، وكذلك المنبر، مع تغطية أجزاء من الجدارن الخارجية لقاعة الصلاة ببلاطات القيشاني، وكذلك
أجزاء من المآذن جلها يرجع للعهد العثماني الأول، كما أن أغلب الملامح الزخرفية للمساجد في العهد العثماني متمثلة في استخدام عنصر أو عدة
عناصر زخرفية بارزة، وهذه الزخاف أصبحت شائعة الاستعمال في العمارة الدينية التي ترجع للقرن السابع والثامن[11] عشر الميلاديين

ـ العناصر المعمارية في المسجد الليبي:

تتميز المدن الليبية بكثرة مساجدها ، فقد أجمع الرحالة الذين زاروا مدينة طرابلس في عصور مختلفة أن مساجد البلد لا تعد ولا تحصى
لكثرتها[12]، لذلك فإن معظم المساجد الباقية لمدينة طرابلس تعود إلى الفترة العثمانية الأولى أو القرمانلية أو العثمانية الثانية، لأن طرابلس في تلك الف
كانت تشكل قوة مهيبة الجانب تسعى الدول الأوروبية إلى كسب ودها وعقد الاتفاقيات معها، بالإضافة إلى ما كان يرد إلى حكامها من مكاسب وغ
نتيجة للنشاط البحري للأسطول الطرابلسي، مما أدى إلى الاهتمام بتشييد العمائر وترميم العمائر القديمة، وقد شكلت عمائر تلك الفترة مرحلة مميز
التطور المعماري وعناصر الزخرفة الفنية في مدينة[13] طرابلس

ـ نماذج لبعض المساجد الليبية:

أولاً: جامع درغوت:

يقع الجامع في منطقة باب البحريحده من الشمال شارع باب البحر، والغرب شارع فرعي (زنقة درغوت) ومن الجنوب زنقة الحمام،
ومن الشرق منطقة الحمام الملاصقة للجامع، انشأه درغوت باشا على مساحة مستطيلة الشكل، حيث تظهر جدران الجامع الخارجية بشكل غير منت
وخاصة الواجهة الشمالية الغربية ، وأن الواجهات جميعها تخلو من الزخارف، كما يوجد بابان داخل المبني الباب الرئيسي يقع في جدار الواجهة
الشمالية الغربية إلى جانب المئذنة ، والباب الآخر في الواجهة الشمالية الذي يؤدي إلى المدافن والأضرحة[14] كما يوجد بالجامع
فناءان مكشوفان يستعملان كمدافن تضم مجموعة من القبور وعليها شواهد رخامية يتوسطها[15] ضريح المنشئ

ـ بيت الصلاة:

يتوسط في الجامع وقد صمم على شك حرف (L) ويمتد إلى الشمال والشمال الغربي منها يمتد فناء طويل نلاحظ به سدة من الحجر تمتد حتى
تلتصق ببناء المئذنة، تنقسم قاعة الصلاة إلى ثلاثة أقسام :
القسم الأول منها يتكون من خمسة أروقة موازية لحائط القبلة وبه اثنا عشر عموداً حديثة العهد تغطي هذه الأروقة عشرون قبة دائرية.
أما القسمان الجانبيان من بيت الصلاة ، متكون كل منهما من ثلاثة أروقة تغطيها اثني عشرة قبة دائرية مقامة على أعمدة رخامية ، وإلى
الشمال الشرقي من قاعة الصلاة ، توجد حجرتان تفتحان على القاعة نفسها وبها بابان آخران يفتحان في الجهة الشمالية الشرقية من الجامع، الحج
الصغيرة مغطاة بقبة، أما الحجرة الأخرى فهي تضم عدة قبور مغطاة بقبة أيضاً، وتبلغ مساحة بيت الصلاة حوالي 348[15] م2

- المحراب

لقد تنوعت المحاريب في العهد العثماني الأول من حيث مواد زخارفها، فالبعض منها لم يحتو على أي زخارف مثل محراب المسجد النخلي بينما ظهرت الزخارف بشكل واضح في محاريب أخرى منها محراب جامع درغوت، فقد كسيت ببلاط القيشاني، واشتملت هذه الزخارف في العا على شكل الهلال والنجمة محفورة حفراً بارزاً أو بعض الأشكال النباتية والكتابية المتمثلة في الآيات القرآنية والدعائية[16].

أما محراب جامع درغوت فهو عبارة عن حنية مجوفة معقودة بعقد نصف دائري يبلغ اتساع هذه [illegible] سم، وصنجات عقد المحراب من الرخام الأبيض فيما عدا صنجة المفتاح فهي من رخام وردي اللون ويعلوها شكل الهلال والنجمة محفوراً حفراً بارزاً ويرتكز عقد المحراب على عمودين من الرخام يعلو بدنهما تاجان على شكل ناقوس مقلوب تعلوه وسادة رخامية مربعة بارزة، أما نصف قبيبة المحراب تحتوي على زخارف جصية هندسية بارزة عن أشكال نجمة وخطوط خماسية هندسية، بالإضافة للزخارف الأخرى الموجودة في الجزء السفلي من المحراب من كتابية وحيوانية ونباتية وهندسية[17].

- المنبر

لقد احتوت المساجد في العهد العثماني الأول على المنابر وكان أغلبها من الخشب وقليل منها من الرخام مثل جامع درغوت فكان ومنبره بالكا مصنوع من الرخام يتقدمه عمودان من الرخام ويرتكزان على قواعد من كتل رخامية مربعة يعلوها جزء دائري، أما التاج فزخارفه موزعة على ثلاثة أجزاء ، الجزء السفلي يشتمل على أشكال نباتية ، ويعلو ذلك وسادة رخامية مربعة حفر على كل جانب من جوانبها رسم هلال ، ويرتكز عل العمودين عقد ثلاثي النصوص نقشت في واجهته زخارف نباتية دقيقة محفورة حفراً بارزاً ويعلو ذلك زخارف كتابية ، ويغطى من الأعلى قبة نص كروية صغيرة ترتكز علي أربعة أعمدة شبيهة تماماً بالأعمدة التي تتقدم المنبر مزخرفه بزخارف نباتية محفورة حفراً بارزاً، وقد استخدمت من الرخام الأخضر والأحمر كفواصل بين الحشوات الرخامية بجانبي المنبر كما غطت بطون الفتحات من الأسفل ببلاطات من القاشاني ذات زخارف نباتية وهندسية[18].

- النوافذ:

تحتوي قاعة الصلاة على نوافذ على شكل مستطيل غائر في جدار قاعة الصلاة ، بلغ عدد هذه النوافذ خمس نوافذ حيث تقع اثنتان منها على يمين المحراب، وتقع النوافذ الثلاثة الأخرى على يسار المحراب، وهناك سبع نوافذ مواجهة لجدار القبلة ، وهي مستطيلة الشكل مصنوعة من الخشب[19].

- المضيأة:

تقع على يمين الباب الرئيس الذي يفتح على شارع درغوت حيث يتقدمها رواق محمول على ثلاثة أعمدة تحمل عقدين نصف دائريين ترتكز على تيجان من النوع الدوري ، ويعلو العقود أشكال تمثل شرفات مسننة، وإلى جانب هذه أيضاً المبضأة من الجهة اليسري دورات المياه وهي ملح بالمبضأة[20].

- المئذنة:

لقد ضمت مساجد مدينة طرابلس العديد من المأذن تعود إلى العهد العثماني الاول، ومازالت تحتفظ بمكوناتها الأصلية فوجدت المآذن الأسطونية الشكل كمئذنة جامع درغوت باشا، والتي ينسب بنائها إلى اسكندر [illegible] (16.04 م)، وهي مكونة من قاعدة مربعة تضيق من أعلى عن طريق انحسار الجدران قليلاً إلى الداخل ويُحد القاعدة من أعلى إطار مجري بارز، حيث يبدأ التجول إلى الديران المستدير عن طريق أربع مثلثات منحدرة رؤوسها إلى أسفل ، ثم يلي ذلك البدن الإصطواني ، وتتخلله فتحات صغيرة مستطيلة ، وينهي البدن من أعلى بإطار حجري بارز ، حيث ت الجدران في الانفراج إلى الخارج قليلا مكونة من قاعدة للشرفة المستديرة التي ترتكز على الجدران مباشرة، ويعلو الشرفة الجزء الثاني للبدن الإسطواني، وهو ضيق كثيراً من الجزء الأول، ويعلو هذا الجزء القمة المخروطية المستديرة من ستة اوجة قطاعها مدبب ومصنوعة من الخشب[21].

ثانياً: جامع شائب العين[22]:

يقع هذا الجامع بشارع سوق الترك بنى هذا الجامع محمد باشا الملقب بشائب العين ، عندما تولى ولاية [illegible] م، وقد شيدت هذا الجامع الذي يحمل اسم [illegible] م[22].

- بيت الصلاة:
توجد قاعة الصلاة في منتصف الجامع تقريباً ، ولها أربعة أبواب خارجية اثنان يفتحان مباشرة على سوق الترك في الجدار الجنوبي ، والباب الثالث يفتح على الفناء الغربي ، والرابع يفتح على الفناء الشمالي، كما يوجد باب خامس في جدار القبة شمالي المحراب يوصل إلى حجرة مغطاة مثمنة بها ضريح مؤسس الجامع شائب العين وأفراد عائلته ، ويوجد باب آخر جنوب المحراب يصل إلى حجرة أخرى ، وتتكون قاعة الصلاة من أربعة أروقة عمودية على حائط القبة ، الرواق الأوسط وهو أكثر أرتفاعاً واتساعاً به تسع أعمدة موزعة في ثلاثة صفوف ؛ كل صف به ثلاثة أعم كبيرة من الرخام تستند على أقواس تغطيها ست عشرة قبة صغيرة[23]

- المحراب:
يقع في الجدار الشرقي في منتصف البيت تقريباً ، وهو عبارة عن تجويف داخل جدار القبلة مزخرف به بعض الآيات القرآنية[24]

- المنبر:
على يسار المحراب وهو مصنوع من الرخام ويتكون من عدة درجات وتعلوه قبة صغيرة محمولة على أربعة أعمدة صغير[25]

- النوافذ:
وبقاعة الصلاة يوجد عدة نوافذ على ارتفاعات متفاوتة أربع منها في الجدار الجنوبي، ونافذتان في الجدار الغربي، ونافذتان في الجدار الشمالي وأربع نوافذ في الجدار الشرقي، ويعلو جدار القبة نوافذ صغيرة نصف دائرية مغطاة بالزجاج الملون[26]

- المضيأة:
توجد على يسار الداخل مكان للوضوء متصل بالجدار الغربي ومغطى بالقيشاني الملون، وفي أقصى شمال هذا الرواق مدخل يوصل إلى رواق آخر يمتد موازة جدار قاعة الصلاة يوصل إلى حجرات الاستحمام ودورات المياه[27]

- المئذنة:
وهي على الطراز التركي ولها شرفة واحدة[28]

ثالثا : دور المؤسسات الدينية والثقافية في ليبيا.
أ- الزاوية(***)
الزاوية في العربية تعني الركن، أي ركن البناء ، وسماها أهل التصوف الخلوة ، أو مكان الاختلاء بأنفسهم أو مريديهم في ركن مسجد القرية أو المدينة، وقامت في العالم الإسلامي وفي فترات مبكرة منه بعدة أدوار[29] فالزاوية هي مركز ديني ثقافي واجتماعي وعسكري وهي المكان للصوفية لتدريس طرقهم[30]

يشيد مبني الزاوية في العادة إلى جوار ضريح شيخ خليل أو عالم ورع، وربما شيد الضريح إلى جوار الزاوية في بعض الحالات، وغالباً ما يقوم بإنشائها لأهالي المحبين لهذا الشيخ، أو ذلك العالم الورع الصوفي ، ويبدأ مشروع بناء الزاوية بداية متواضعة في مكوناتها المعمارية، ثم تنمو هذه النواة المعمارية في التطور والتوسعن وذلك بازدياد نشاط القائمين عليها ، ويقوم الأهالي والأفراد والعائلات الميسورة الحال من وقف الأملاك أو العقارات ، أو أراضي زراعية تحبس، وتكون ذات عوائد اقتصادية كبيرة للإنفاق منها على مشاريع الزاوية التوسيعية، وكذلك للإنفاق على الطلاب الذين وهبوا حياتهم لطلب العلم، وحفظ القرآن واالفقه، ونشر المعرفة العربية والدينية بين سكان المناطق المختلفة حيث يجد الطلاب المكان المناسب للإقامة والتعليم[31]

وتبدأ هذه النواة المعمارية الدينية المباركة قي التوسع المعماري فيزداد حجمها وتكثر حجراتها وخلاويها، ويضاف إليها بالتدريج مبان وملحاقات أخرى خدمية، وسرعان ما تزداد مكوناتها المعمارية عاماً بعد آخر إلى أن يتم توسيع المسجد الذي بني غالباً على جوارها والذي ما يلبث أن يصبح حافظاً كبيراً له ملحقاته المعمارية[32] الخدمية. وكان لهذه الزاويا المنتشرة في ربوع ليبيا الأثر الكبير في التعليم وانتشاره ، وبانتشار التعليم الديني ازدهرت المعرفة والثقافة وتأليف الكتب ونسخ المخطوطات، مما ساعد على ترسيخ مفاهيم الحضارة الإسلامية في جميع أرجاء ليبيا، وذلك أن هذ الزاويا العلمية خرجت الألأف من طلاب العلم والمعرفة وحفظة القرآن والعلماء والمشايخ الذين انتشروا بذورهم في أرجاء البلاد واضعين معرفتهم وخبراتهم من أجل غيرهم ووطنهم وذلك بإنشاء كتاتيب وزاويا ومدارس دينية والتي تأخذ في فترة لاحقة مجرى التطور نفسه الذي مرت به الزاوية العريقة، وتنسب الزاويا إلى الطريقة الصوفية التي تنتهجها مثل الطريقة القادرية والشاذلية والزروقية نسبة إلى شيوخ هذه الطريقة[33]

طرابلس بوجود العديد من الزاويا التي اشتهرت بها وذاع صيتها ومنها الزاوية الكبيرة والزاوية الصغيرة الزاوية القادرية زاوية المكني وزاوية س
يعقوب والزاوية السنوسية بطرابلس، بالإضافة إلى أنه هنالك العديد من الزاويا الأخرى في ضواحي مدينة طرابلس مثل زاوية الشيخ الماعزي ،
وزاوية ميزران، وزاوية سيدي المصري وزاوية عمورة ، والزاوية الغربية وزاوية بن شعيب، وكذلك في المناطق المختلفة شرق ليبيا ، مثل زاوي
أبي راوي بتاجوراء، وزاوية الدوكالي بمسلاته وزاوية يوسف الجعراني بمسلاته وزاوية الفرجاني بالخمس، وزاوية عبدالسلام الأسمر بزليتن
والزاوية الزروقية بمصراته وغيرها من الزوايا في باقي أنحاء ليبيا[34]

ب- الرباط:

ويعني في اللغة هو مكان اجتماع الفرسان [35]، تأهباً للرد على الحملات التي تشن على الثغور ، وهو في الحق مكان ديني حربي اختص به المسلمون ، ويحتوي بعض الأربطة – بيوتاً للسكن ، ومستودعاً للسلاح والمؤن، وبرجاً للإشارة.

وإذا رجعنا لكتب اللغة الحديثة لمعنى كلمة رباط ؛ فإننا نجد أن مدلولها في الاسم(رباط) هو ما يشد به، وبمعنى المصدر (الرباط- المرابطة)، وتعني المواظبة، كما تعني في معناها ملازمة[36] ثغر العدو

أما في كتب الحديث فهي تعني الانفراد والاعتزال وقصر الرباط على الجهاد والحرص[37] على في الشدائد التعريف (الرباط)اصطلح الفقهاء على أن احتباس النفس في الجهاد والحراسة[38] المتصوفة فلهم رأي آخر في تعريف الرباط الموضع الذي يتزم[39] فيه للعبادة

ومن التعريفات السابقة يمكن استخلاص أن دور الرباط هو مراقبة تحركات العدو ورصدها على طول الساحل وكذلك يعد مكاناً للتعليم والعبادة بسبب أن المرابطين أغلبهم من العلماء وطلبة العلم[40] والمتصوفة الإسلام في ربوع ليبيا والمغرب العربي الإسلامي وما صاحب ذلك من تحد للفرنجة ومحاولاتهم منع تقدم انتشار الإسلام والمسلمين، وانتشار الحضارة الإسلامية كان لزاماً على حكام هذه الولايات والامصار الإسلامية في شمال أفريقيا أن تقوم بتشيد العديد من الحصون في مناطق مختلفة من الشريط الساحلي لشمال أفريقيا يطلق عليها الربط ، وهي ذات مواصفات معمارية خاصة للقيام بالدفاع عن دور الإسلام وحمايتها من هجمات الفرنجة[41] وأساطيلهم

وبذلك أقيمت على طول الساحل الليبي الحصون والربط ، وقد تأسس أول رباط على يد الوالي العربي هرثمة بن[42] 180هـ في طرابلس ؛ ليكون درعاً واقياً للبلاد وعيناً ساهرة لها من مباغتات الأعداء، وكانت الرباطات حصوناً متصلة ، فإذا ظهر على البحر عدد نور كل حصن للحصين الذي يليه ، واتصل التنوير، فينتهي خبر العدو من طرابلس للاسكندرية في وقت قصير ، أما في النهار فأغلب الظن أنهم كانوا يستخدمون الدخان بدلاً من التنوير، وبذلك أصبحت هذه الأربطة تمثل خطاً دفاعياً عامراً بالمرابطين علماء ومجاهدين وعباداً

أصبح الرباط معسكراً صغيراً محصناً ويتكون من صحن وعشرات الغرف الانفرادية حوله ، ومن الطبقات التي تعلو جوانبه وتنتهي بجامع كبير وصومعه مستديرة للآذان ومقر استراحة للمسافرين، وهو أيضاً مدرسة يتلقى فيها المرابطون علومهم على الرجال والنساء ، ويعلمون على صناعة الحبر والورق ليوزع على الطلاب مجاناً، ناهيك عن دار لنسخ المصاحف الشريفة وكتب الحديث والفقه، حيث يحبس المؤلفون مؤلفاتهم بخطوط أيديهم على الأربطة؛ لتكون منها النسخة الأم التي يرجع إلى نصها الصحيح وتقابل عليها النصوص المنتسخة، ويتولون المرابطون النساخون نسخ بأعداد كثيرة لتوزيعها على طلاب العلم، ففي كل رباط مكتبة جدارية[43] تحتوي النسخ تصدر التعليم على العلوم الإسلامية البحتة بل اتسعت ، وشملت بعض العلوم الرياضة وعلم الفلك والكيمياء، وبذلك أصبح الرباط نبراس اشعاع للعلوم العربية والإسلامية ومركز[44] بناء الثقافة الإسلامية

لقد لعب الرباط في المغرب العربي دوراً أساسياً في تثقيف السودانيين جنوب الصحراء في العربية ، وسرعان ما قامت مدن على تلك الأربطة وازدهرت فانتشرت الأربطة من خليج غانة إلى البحر الأحمر[45] إلى ومن الفضائل التي اتصف بها الحكام ، أو الولاة المسلمون في الدول التي توالت على حكم بلدان شمال أفريقيا اهتمامهم بتدريس العلوم الدينية عبر الفترات المتوالية التي كانت سبباً في انتشار الإسلام والعلم والثقافة والمعرفة الإسلامية في كل الامصار الإسلامية في هذه الفترات ، والتي كانت ليبيا جزءاً مهماً من ولاياتها ومقاطعاتها، مما صبغ هذه الدول والشعوب بطابع الحضارة والثقافة الإسلامية[46]

ج- المدارس

تأسست في العهد العثماني والقرمانلي في طرابلس عدة مدارس كان لها الفضل والأثر الكبير في النهوض بالتعليم الديني في ليبيا عامة، وخاصة منطقة طرابلس ومن هذه المدارس، هي:

- مدرسة عثمان باشا الساقزلي:

تقع مدرسة عثمان باشا بالمدينة القديمة بشارع درغوث باشا ، وتعتبر من المدارس المشهورة التي أسسها والي طرابلس عثمان باشا الساقزلي الذي حكم الولاية في الفترة[49] 1672-1674م، وقد انشأ العديد من المنشأت العمرانية في المدينة القديمة من أهمها سوق الرباع ، والفندق الكبير ، والفندق الجديد واهتم كثيراً بالاستحكمات العسكرية غير أنه في أواخر ايامه عامل الناس معاملة سيئة ، فثار عليه الجند وحاصروه في القلعة وخوف ان يقع في يد الثوار شرب السم[50] في 20 نوفمبر 1672م[47].

وصف المدرسة

مبني المدرسة مربع الشكل ويبلغ طول جدراها الجنوبي 49 المترفي ويوجد بالمدخل الرئيس في الجدار الشمالي لوحة تأسيسية من الرخام مستطيلة الشكل مكتوب عليها ذكرى تأسيس المدرسة .

وفيما يلي نص الكتابة : "حضرت عثمان باشا يسر الله له من الخيرات ما شاء، أسس بنيان هذه المدرسة ، وجعلها لطلبة العلم وتلاوة القرآن الك الهي تجاوز عن سيئاته يارحمان، تحرير في غرة ذو القعدة في سنة أربعة وثلثون وألف"[49]

ويوصل مدخل المدرسة إلى فناء مكشوف مستطيل الشكل طوله 8.80 متر وعرض 8.50 متر تتوسطه نافورة مربعة الشكل يحيط بالصحن من أربع جهات رواق من باثكة من ثلاثة عقود ونصف دائرية محمولة على 12 عمود رخامياً ذات أبدان اسطوانية ولها تيجان من النوع الحفصي تسع من تيجانها على شكل زهرة اللوتس(****)، واثنان منهاعلى شكل الدوري والآخر عمود ركني بدون تاج على حافة جدار المصلي وتغطي كل رواق من الأروقة الاربعة قبو طولي فيما عدا البلاطات الركنية فإنها مغطاة بقبة نصف كروية محمولة على مثلثات كروية[49] بالمدرسة أيضاً مصلى وهو مربع الشكل يبلغ طوله 5 أمتار ويوجد في كل جدار من جدرانه الأربعة عقد نصف دائري يرتكز على أكتاف حائطية بمقدار 30 سم، تحمل جدران زخارف جصية بسيطة التي تتكون من مجموعة عقود دائرية الشكل تكاد تكون كاملة الاستدارة محمولة على أعمدة وتتخلل جدران المصلى خمس نوافذ، نافذتان في الجدار الشمالي الغربي، نافذتان آخريان في الجدار الشمالي الشرقي، بينما تقع الأخيرة في الجدار الجنوبي الغربي[50]

ويوجد المحراب في منتصف جدار القبلة وهو بسيط الشكل عبارة عن تجويف في جدار القبلة تكتنفه من كل جانب دعامة ، وعلى جانبيه توجد مشكاة وتعلوا المصلي قبة جميلة على قاعدة مثمنة ترتكز عليها مقرنصات بشكل ربع دائرة كما تجد بها مجموعة من الخلاوي خاصة بطلبة المدرسة : وهي عبارة عن حجرات صغيرة تستخدم لسكن الطلبة القاطنين من خارج المدينة[51] تقع بجانب الفراغات الخدمية ، والتي تختلف من مدرسة إلى أخرى ، والتي يبلغ عددها أربع عشر خلوة، مختلفة المساحات تحتوي كل منها على فتحة باب معقودة بعقد نصف دائري ترتكز على كتفين وتحتوي كل خلوة على نافذة مستطيلة الشكل تطل على رواق وتغطي كل خلوة قبو برميلي الشكل ، وتوجد أيضاً المضيأة وحجرات الاستحم وبه حوض جميل مزخرف من الرخام كان يملأ من البئر المجاور وتقع حجرة ضريح عثمان باشا شمال شرقي المصلي، وبها عدد من المقابر وهي مربعة الشكل تعلوها قبة ويقع مدخلها إلى جانب الشمالي الغربي[52]

الخاتمة

من خلال العرض للمعمار الديني الإسلامي في ليبيا فإننا نلاحظ أن بدايته بسيطة فكانت المساجد والزاويا والربط خالية من الزخرفة وهي مرحلة كان تأثير الدول المجاورة واضحاً فيها وبخاصة دول شمال أفريقيا ودول ما وراء الصحراء.

وبطبيعة الحال فإن تطور الفن المعماري والزخرفي قد بدأ يتطور بالتدريج حتى بلغ غايته في الفترة قيد البحث فمن خلال المساجد التي تم عرضها تبين أنها تحتوي على زخارف في جدرانها وفي ألوانها ونوافذها داخل صحن المسجد وخارجه، فقد كان للبنائيين الليبيين مسحة فنية جمالية رائعة أشاد بها الكثير ممن زار ليبيا وشاهدوا مساجد طرابلس التي شيدها بعض الولاة العثمانيين كدرغوث باشا الذي عرف المسجد باسمه وجامع شايب العين وغيرها من المساجد التي لا تزال تحتفظ بكثير من زخارفها ونقوشها المحفورة على الجدران والأبواب وهو ما تم الاشارة إليه تفصيلاً في ثنايا هذا البحث.

المراجع

1- علي مصطفى رمضان: تأملات في المعمار الإسلامي في ليبيا، وزاة الدولة الإدارة العامة للثقافة ، ليبيا؛ تونس: الدار العربية للكتاب، 1975م، ص2؛ انظر: مسعود رمضان شقلوف وآخرون: موسوعة الآثار في ليبيا، تقديم علي البلوشي وآخرون، ليبيا؛ تونس: الدار العربية للكتاب، 1980م، ص9
2- علي مصطفى رمضان: المرجع السابق، ص2
3- محمد المبروك المهدوي: جغرافية ليبيا البشرية، بنغازي: منشورات جامعة قاريونس، ط1، 1990م، ص9؛ عبدالعزيز طريح شرف: جغرافية ليبيا، الاسكندرية: منشورات مركز الاسكندرية للكتاب، 1996م، ص ص4-5.
4- محمد المبروك المهدوي: المرجع السابق، ص10
5- مسعود رمضان شقلوف وأخرون: المرجع السابق، ص12
6- علي مسعود البلوشي وآخرون: المرجع السابق، ص12
7- إبراهيم سالم نويجي: المساجد الإعلامية في المدينة القديمة بطرابلس في العهد العثماني الأول 1551-1911م دراسة أثارية تاريخية، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة المرقب/ الخمس، 2004م، ص265
8- علي مسعود البلوشي وآخرون: المرجع السابق، ص11
9- حنان محمد علي بن نافع: العناصر الزخرفية المعمارية لمدينة طرابلس خلال العهد العثماني الأول 1551-1911م، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة المرقب/ الخمس، 2007م، ص84
10- علي مسعود وآخرون: المرجع السابق، صفحة بدون ترقيم.
11- علي مسعود البلوشي: تاريخ معمار في ليبيا في العهدين الأول والثاني 1551-1911م، طرابلس: منشوررات جمعية الدعوة الإسلامية 2006م، ص137
12- أبوعبدالله بن أحمد التجاني: رحلة التجاني ، المطبعة الرسمية، 1958م، ص254
13- صلاح أحمد البهنسي: المرجع السابق، ص59
14- حنان محمد نافع: المرجع السابق، ص97؛ وانظر: مسعود رمضان شقلوف: المرجع السابق، ص60
15- - مسعود رمضان شقلوف وأخرون: المرجع السابق، ص61-62
(*) يقع المسجد بكوشة الصفار وهو مسجد صغير له مدخل معقود في الجانب الشمالي الغربي، أسس هذا المسجد رمضان خزندار 1064هـ/1653م، كما سجل في لوحة رخامية فوق مدخل المسجد.
16- حنان محمد علي بن نافع: المرجع السابق، ص دون ترقيم.
17- المرجع نفسه: ص108
18- المرجع نفسه: ص109
19- المرجع نفسه: ص106
20- المرجع نفسه: ص102
21- المرجع نفسه: ص109.
(**) محمد شائب العين هو المنسوب إليه الجامع والقبة بشائب العين لأنه كان في إحدى عينه شعرات بيضاء ولاه الجند بعد أن عزلوا إبراهيم التارزي في أواخر ذي الحجة 1098هـ/1687م والياً على طرابلس ويقول عنه النائب الانصاري كان خيراً تقياً نزيه النفس واسع الصدر ذا رأي وحزم وروية له مشاركة علمية، وفي بعض الأربعاء لأحد عشر من شهر ربيع الثاني 1112هـ/1700م ثار عليه الجند وخلعوه وذهب إلى الاستانة وكانت ولايته سنة وبقى هناك إلى ان تولى صهرة خليل قاز دغلي ولاية طرابلس 1114هـ/1702م فجاء به إلى طرابلس وهو وعائلته أو 1115هـ/1703م، وبقى فيها إلى أن مات ودفن بالتربة المخصصة له بالجامع ، انظر مسعود رضمان شقولف وآخرون: المرجع سابق، ص64
22- حنان محمد علي بن نافع: ص67
23- المرجع نفسه والصفحة.
24- المرجع نفسه: ص68
25- مسعود رمضان شقلوف وآخرون: المرجع السابق، ص68
26- المرجع نفسه: ص67
27- المرجع نفسه: ص64

28- المرجع نفسه والصفحة.
(***) ذكرت دائرة المعارف الإسلامية تحت مادة زاوية وهي محل تفتيت العقول دينيا وأدبياً ، وتكون مسماة باسم أحد المرابطين على اصطلاح المغاربة وهي عبارة عن مسجد وقفيه على ضريح المرابط المنسوب إليه وفيها محل لقراءة القرآن وآخر تدريس فيه العلوم، وثالث لتعليم الصغار، ونزل للطلبة الذين يريدون إكمال دروسهم حتى يعصبروا أهلا للتدريس أو نيابة القضاة ونزل آخر للفقراء والمسافرين، وقد تكون فيها مقبرة لأهل الصلاح القاصدين مجاورة قبورهم لقبور المرابطين وصارت للزاويا ربع كثيرة وأوقاف جيدة.
29- غيث عبدالله العربي:امسلاته في العهد العثماني، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة المرقب/ الخمس ،2006م، ص163 (بتصرف يسير).
30- محمد علي عبدالسلام مسعود: دور الكتاتيب والزاويا في حركة الجهاد الليبي في الفترة (1911-1922م) من الناحية الدينية والاجتماعية)، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة المرقب/ الخمس، 2009م، ص22
31- الطاهر أحمد الزاوي: معجم البلدان الليبية، مكتبة النور، طرابلس، د.ت، ص ص164-165
32- علي مسعود البلوشي: معالم الحضارة الإسلامية في ليبيا، إعداد مجموعة من الباحثين، اللجنة الوطنية الليبية للتربية والثقافة ، طرابلس ، 2007م، ص251
33-نجاح القابسي: المعاهد والمؤسسات التعليمة في المغرب العربي، طرابلس: مجلة كلية التربية، 1980م، العدد الرابع، ص ص17-19
34- علي مسعود البلوشي: معالم الحضارة الإسلامية في ليبيا، ص ص253-254-255
35- الطاهر الزاوي: مختار القاموس، ترتيب على طريقة مختار الصحاح والمصباح المنير، ليبيا؛ تونس: الدار العربية للكتاب، مطبعة اوفسا ميلاد 1979م، ص236
36- محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس، تحقيق عبدالحليم الطحاوي، مطبعة حكومة الكويت، 1968م، ص ص228-304
37- مسلم صيحي مسلم.
38- محمد بن أحمد التلمساني بن مرزوق: المسند الصحيح مآثر مولانا الحسن ، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم 1411، ورقة 174
39- بشير رمضان التليسي: الاتجاهات الثقافية في بلاد الغرب الإسلامي خلال القرن الرابع عشر/العاشر الميلاجي، طرابلس: منشورات دار المدار الإسلامي، 2003م، ص ص412-413.
40-المرجع نفسه : ص413
41- المرجع نفسه والصفحة.
42- عبد\اللطيف محمد البرغوثي: تاريخ ليبيا الإسلامي منذ الفتح وحتى بداية العهد العثماني ،بيروت: دار صادر، منشورات الجامعة الليبية، 1972م، ص227ح رأفت غنيني الشيخ: مرجع سابق، ص91؛ بشير رمضان التليسي: المرجع السابق، ص416
43- رأفت الشيخ غنيمي: المرجع السابق، ص ص89-90-91
44- محمد الكلدي بالحاج: المرجع السابق، ص30
45- علي مسعود البلوشي: المرجع السابق، ص251
46- مسعود رمضان شقلوف وآخرون: موسوعة الآثار الإسلامية في ليبيا، ص81
47- المرجع نفسه: ص ص81-82
48- المرجع نفسه والصفحة.
(****) وهو شجر شائك من الفصيلة الوردية له ثمرة تكون في البداية شيهة بلون وحجم اللامس(نبات عطري) وكلما يكبر صبح شبيها بالتمر، ويشبه حجمه حبة الزيتون وله نواة صغيرة تشبه طعمة التين والتمر، انظر: محمد المبروك الذويب: من مصادر التاريخ القديم، الكتاب الرابع من تاريخ هيرودوت ، بنغازي:جماعة قاريونس، 2003م، ص121
49- حنان محمد علي نافع: المرجع السابق، ص167
50- جمال أحمد المويز: المدارس الدينية لمدينة طرابلس في العهد العثماني، جامعة المرقب/ الخمس، 2006م، ص27
51- مسعود رمضان شقلوف وآخرون: موسوعة الآثار الإسلامية في ليبيا، ص85
52 – حنان محمد علي نافع: المرجع السابق، ط2، ص171-172؛ مسعود رمضان شقلوف وآخرون: موسوعة الآثا الإسلامية في ليبيا، ص ص 84-85.